# الفيلسوف سبينوزا

## على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وتلي ، ولوس ، وزرز ، وماركس ، وجانيه وسيال وغيرهم وبعد إنجاز تأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم إياي سفراً قيماً مضبوطاً سهل التأخذ وانياً بالمرام في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها وعصورها وتتمة لرغبة المقتطف تقدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . ليبنز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

### (١) ترجمته

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس ». وارتقّا «بابن عزرا» وقد قرأ الأدب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير ». وحرّمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « بريفسبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندريسبيك »

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذ نبذ الحذاء المرقّع .لكن « لبنغ » ردّه الى شهرته .فدهش « جاكوبي » من كون « لبنغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم لقبت « جاكوبي » اليه لنظر شاعر المانيا العظيم « جيته». فقرأ هذا كتاب « الاخلاق» فوجد فيه الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « فخت » « وشلنغ » و« هيغل » مذاهبهم المتوّجة في « الوحدة الكون » بعقارنتهم فلسفته بالبنتمولوجيا ( فلسفة المعرفة ) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لبنغ » من عبارة« سبينوزا »الشهيرة : حفظ الكيان: وكذلك شعار فلسفة كلٍّ من المفكرين«شوبنهور»و«نيتشه»وبرغسن . فشعار الاول: الارادة.

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم «شلي» رسائله في : الدين والسياسة . و «جورج اليوت» كتابهُ في الاخلاق . ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاته اقاموا له في هرلاندا نصباً عديم المثال «دوزانت»

(٢) فلسفته

«سبينوزا» تلميذ «ديكارت» من حيث المنطق والمنهج . الاّ انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليهِ الكون : معتمداً على اسناد «ديكارت» التصوُّرات الى الله . ويتناول تفكير «سبينوزا» ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغتهُ جانبه وبيان

﴿ الله ﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم «سبينوزا» الكون الى قسمين متمايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته خاتمة الى مذهب «ديكارت» بحذف الله من الكون ، كانهُ لا صلة له تعالى به . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة بمحبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نقصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تتدرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون اسناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية ، والاشياء ، تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿ الصفات ﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد . فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ، فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل ( هذا هو الفكر ) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة ( هذا هو الامتداد ) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية ، وأوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها ، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علو ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائي ، اراد به الله ان يقتل ذلك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة . واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه ، ناسبين اليه تعالى اشكال تقصتا . لذا نرى آلهة الناس تدير الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصاً لعبادة الله ، الذي ميزه عن سواه ، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجد الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم ، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية ، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضد وهمهم . فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشراً في حال آخر . وكذلك بلة المطر . وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شراً ، كالموسيقى فهي خير للسرور ، وشر للحزين ، وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون ، وهماً ، بانتظام الاشياء : فالمستحب عندهم منتظم ، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة ، قائلاً : عمل الله كل شيء حسناً

( على ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة ) وكذلك المحال محصور فينا ، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله قوى كالتي في الانسان . فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان . فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد !... (روبرس)

## (٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف ، لنقص معرفتنا وتقلبها ، لاعتمادنا الاشياء المتصلة المستقبلة ، دون الثابتة . فنحب ونبغض ، ونفرح ونحزن ، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيّدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقف حفظ الذات علينا قلنا «فعل» . وحين يتوقف على خارج عنا قلنا «شوق» . فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فاننا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم ، في الحوال وحينا ، قلنا « صيغ » . . . ففيما نظن اننا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسس الا شعوراً ، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونه فاعلاً عن فاعلين فهو ذو الشعور ) يمثل احدهما ( التحسس الاشياء ). وهذا هو تعليم نسبية الحس ومرجع هذا التعليم « بروتاغوراس » . فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني . فانهُ عدا كونهِ فانياً ، هو قسم من طبيعة الله . بناءً على كون كل موجود كائناً في الله . فتصوراتنا ، في جوهرها وابعد حدودها ازلية ، فهي مطابقة . فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة . فالاولى كائنة في الله ، والثانية فينا . الاولى أفعال ، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة . والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو « لذّة » وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي : البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة ، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة. والعملان واحد. فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط ) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن يشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاته واعماله . فالخير ما قاد الى المعرفة . والشر ما طمس معالمها. فقوتنا فهمنا . وضعفنا جهلنا . وليس البغض وحده رذيلة ، بل ايضاً الجبن ، والخجل والقلق ، وجهلنا قدر انفسنا . فمن عاش بحسب الذهن يترفع عن الرأفة والخنوع ، ويتقابل الحياة بصدر رحيب ، ولا يطيع سوى وجدانه . فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً ، لانهم عن وعي يفعلون ، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل ، وكالجندي في الجبهة ، فانهُ يجاهد . وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال . وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (للتحكمة في الوجود ؛ فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة ، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله ، مرة واحدة ، زالت المعاكسات فينا . فمصدر الالم حبّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليه . فلا يشتاقنَّ المرء الاّ لما هو في متناول يده. فالقوَّة تظهر المعرفة وتعزّزها. ومعرفة الله تتغلَّب على العواطف . وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية . ذهنا حر من الحواجز ، لانهُ قسم من الاله غير المحدود. فحقائق الاختيار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله . عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس . وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركة وحبًّا لله . وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية : — ١ : العمل بحسب ناموس الله ، والاشتراك في طبيعته . ٢ : صرف النظر عما ليس في الطول ٣ : عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ . ٤ : معرفة الامة كيف تحكم وتحكم ، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارقى صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي : —

١ الله ٢ اصل العقل ٣ اصل العواطف وطبيعتها ٤ قدرة العقل او الحرية الانسانية

﴿الله﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود . فلا يكون في الوجود الا جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ،لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Deum naturam et natam naturata

﴿الصيغ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الا فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة ( افلاطون ) يتجلى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطورات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون . وهذا الجوهر سرمدي ، الا ان تقاسمه تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جداً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نتصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون

منهج «سبينوزا» الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المطلق ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة ( الله ) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصور انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصور انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . هو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الا ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من صفتين الفكر والامتداد فالاشياء في الله تفكير . لان الله يفكر . ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الطويل، وفكره شرط الفكر. الاول اساس الكثرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصورات . اردت